الملكة شجرة الدر [1]

٨

كانت تولية شجرة الدر الملك حركة جريئة ولكن خطرة فى نفس الوقت . ذلك أنه بالرغم من كل ما عُرف عن الملكة الجديدة من أصالة فى الرأى ، وقوة فى الخلال ، ومقدرة فى تدبير الشئون ، وبالرغم مما أسدته إلى المملكة من جليل الخدمات ، وما أحرزته من نجاح فى إجلاء الفرنج ، فان فريقاً كبيراً من الأمراء والزعماء فى مصر والشام لم يَرُقْ لهم أن يستظلوا بلواء امرأة ، وسرعان ماظهرت بوادر الانتقاض الأولى فى الشام حيث أبى نائب السلطنة فى دمشق الأمير جمال الدين بن يغمور وكثير من الأمراء أن يقدموا عهد الطاعة للملكة الجديدة ، وأرسلوا إلى صاحب حلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف حفيد السلطان صلاح الدين الأيوبى يطلبون إليه القدوم إلى دمشق ، فاستجاب لدعوتهم وقدم إلى دمشق وتسلمها ، وقبض على الأمراء الصالحية أنصار شجرة الدر . وكان لهذه الأنباء فى بلاط القاهرة أعمق صدى ، فجدد الأمراء والمماليك عهد الطاعة لشجرة الدر وعز الدين أيبك ، وبادروا إلى تجهيز القوات لإرسالها إلى الشام

ولكن شجرة الدر اخذت تشعر بحرج الموقف وبضعفها كامرأة ، ورأت أن تتزوج من الأمير عز الدين أيبك فتقوى بذلك مركزها كملكة ، وتدعم عصمتها وهيبتها كامرأة ، وتم هذا الزواج بالفعل فى ١٩ ربيع الثانى سنة ٦٤٨ هـ . ولكن الظاهر أن هذه الخطوة لم تحدث أثرها فى تهدئة الأمور ولم ترض الأمراء الناقمين . فعندئذ رأت شجرة الدر أن تُقدم على الخطوة الحاسمة ، وأن تفتدى سلام المملكة ووحدتها بذلك العرش الذى رفعها القدر إليه ؛ فاتفقت مع الأمراء المماليك على أن تخلع نفسها ، وأن يتولى العرش

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٧ (أبريل ١٩٤٦) ، عدد ٨ (مايو ١٩٤٦) .

مكانها زوجها الأمير عز الدين أيبك . ونفذ هذا المشروع فى نهاية ربيع الثانى ، وجلس عز الدين أيبك على عرش مصر باسم الملك المعز ، وانتهت بذلك سلطنة شجرة الدر ، وكانت قصيرة المدى ، ولم تدم أكثر من ثمانين يوماً من عاشر صفر إلى آخر ربيع الثانى سنة ٦٤٨ هـ .

ورأى المماليك فوق ذلك إرضاء لبنى أيوب وتهدئة لثورتهم ، أن يضموا إلى جانب المعز على العرش شخصاً من بيت الملك ، فاتفقوا على إقامة الملك الأشرف موسى من عقب الملك العادل ، وهو يومئذ طفل فى نحو السادسة ، وأخذت له البيعة فى اليوم الثالث من جمادى الأولى . وبذا جلس على عرش مصر ملكان ، وخرجت الأوامر والمراسيم باسم الملكين الأشرف والمعز ، وكانت تحمل صورة التوقيع الآتى : « رسم بالأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الأشرفى والملكى المعزى » .

على أن كل هذه الخطوات لم تحقق الغاية المنشودة ، فلم تهدأ ثائرة المعارضين ولم يعترف أمراء بنى أيوب بالملك المعز ، واستمرت الخصومة حول عرش مصر على اضطرامها ، وسيّر الملك الناصر صلاح الدين صاحب دمشق جنده إلى مصر يحاول انتزاعها من المماليك . فسار إليهم الأمير فارس الدين أقطاى فى قوة منتخبة من الجند المصريين ، وشتت شملهم بالقرب من غزة ، وعاد إلى القاهرة ظافراً (٥ رجب ٦٤٨) . ولكن هذا الإخفاق لم يثن الملك الناصر عن مشروعه ، فجمع قواده مرة أخرى ، وسار بنفسه إلى مصر ، ومعه عدة من أمراء بنى أيوب ، وذاع خبر مسيره فى القاهرة ، فاضطربت الأمور وقبض على كثير من المعارضين وأنصار بنى أيوب ، وسار الأمير فارس الدين أقطاى للقاء المهاجمين ثم تبعه المعز فى بقية العسكر ، والتقى الفريقان على مقربة من مدينة الصالحية ، ونشبت بينهما معركة كبيرة ، رجحت فيها كفة الشاميين أولا ، ولكن المماليك ثبتوا ودارت الدائرة فى النهاية على الشاميين فهزموا هزيمة شديدة ، ومزقت قواتهم ، ووقع عدة من أمراء بنى أيوب فى الأسر ، وكان ذلك فى أوائل ذى القعدة سنة ٦٤٨ هـ .

فعاد الملك الناصر منهزما بفلوله إلى دمشق واعتصم بها . واستقر الملك المعز فى ملك مصر ، وأخذ يعمل على توطيد عرشه ، واستقرت الأمور نوعا ، ثم عقد الصلح بينه وبين خصمه القوى الملك الناصر فى سنة ٦٥١ هـ على أن يستقل المعز

بالديار المصرية وغزة وبيت المقدس ، ويستقل الناصر بما بقى من أراضى المملكة المصرية فى الشام والمشرق ، وأفرج المعز عن أولاد الناصر ، وسائر الأمراء الأيوبية المأسورين لديه ، وصفت العلائق نوعا بين القاهرة ودمشق ، واستطاع المعز أن يتفرغ للشئون الداخلية .

ماذا كان موقف شجرة الدر خلال هذه الفترة المضطربة ؟ لقد عادت شجرة الدر بعد أن خلعت نفسها من الملك امرأة وزوجا فقط ، ولكنها لبثت كما كانت أيام زوجها الأول الملك الصالح سيدة القصر والبلاط . وكان المعز أميراً عاقلا حصيف الرأى والخلال ، طاغية ظلوما فى الوقت نفسه ، ولكنه كان يخشى هذه المرأة القوية التى رفعته إلى الملك ، ويذعن لأمرها ووحيها ؛ وكانت شجرة الدر من ورائه تحميه وتحمى عرشه من كيد خصومه الأقوياء . وكان الملك المعز يعيش فى توجس دائم من دسائس زعماء البحرية زملائه السابقين ، ويخشى من غدرهم على نفسه وعرشه . وكان الخطر ماثلا فى الواقع ، وكان ثمة عدة من هؤلاء الزعماء ، وفى مقدمتهم الأمير فارس الدين أقطاى وبيبرس البندقدارى وقلاوون الألفى ، يتربصون به ويتحدونه بلا انقطاع ؛ وكان فارس الدين أقطاى يتزعم هذه الكتيبة الخطرة من خصوم الملك المعز ويناوئه كلما سنحت الفرص ؛ وكان كلما قصد إلى القلعة سار إليها فى موكب عظيم من الفرسان كأنه ملك متوج . وحدث أن خطب فارس الدين أقطاى ابنة صاحب حماة ، وطلب إلى الملك المعز إسكانها فى القلعة فى جناح من القصر الملكى ، لأنها من سلالة ملوكية ، فخشى المعز عاقبة هذا الطلب ، وتظاهر بالموافقة عليه ، ولكنه اعتزم فى الواقع أن يتخلص من هذا المنافس الخطير ؛ وبينما كانت العروس فى طريقها إلى مصر فى موكبها الفخم دبر الملك المعز أمره واستدعى الأمير فارس الدين أقطاى ذات يوم إلى القلعة ، وأعدّ له فى الوقت نفسه كمينا لقتله ، وجاء أقطاى إلى القلعة مطمئناً ، وما كاد يجوز الأبواب حتى أغلقت ومنع مماليكه من اللحاق به ، وانقض عليه القتلة ، وفى مقدمتهم المملوك قطز الذى تولى ملك مصر فيما بعد ، وقتلوه وألقوا برأسه من فوق السور إلى مماليكه الذين احتشدوا أمام القلعة لحمايته (٣ شعبان سنة ٦٥٢هـ) . فلما رأى أعيان البحرية ذلك خشوا أن تدور الدائرة عليهم فركنوا إلى الفرار ، وسار بعضهم إلى الشام وقصد بعضهم إلى قيصر الروم ، وتفرق بذلك جمعهم ، وأمن الملك المعز شر الفتنة إلى حين .

وعمد الملك المعز بعد ذلك إلى خلع الملك الأشرف موسى ، وهو الملك الطفل الذى أراد أن يتدرع بتوليته فى وجه بنى أيوب وأنزله من القلعة ورده إلى منزله السابق بين أهله ، واستقل المعز بتوقيع الأوامر والمراسيم .

وهكذا عمل الملك المعز على توطيد عرشه شيئا فشيئا ، ولاح له أنه أمن شر خصومه من البحرية بعد أن مزق جمعهم وحطم شوكتهم ، بيد أن الخطر كان يجثم فى ناحية أخرى وكان أقرب إليه مما يتصور .

٩

كانت شجرة الدر خلال ذلك هى الروح المسيطر على كل شئ فى البلاط والدولة ، وكان الملك المعز يعانى من هذا الطغيان الأدبى المرهق ، ولا يرى سبيلاً للخلاص منه . وكانت شجرة الدر بالرغم من هذا السلطان القاهر تجيش بكل ما تجيش به المرأة من صنوف الضعف والأهواء الخطرة ، وكانت قد جاوزت يومئذ طور الشباب النضر وأشرفت على الخمسين من عمرها ، ولكنها كانت مع ذلك تضطرم بنار الغيرة المحرقة ، ولم يهدئ من ثورة غيرتها أنها أرغمت المعز غير بعيد على طلاق زوجه الأولى وأم ولده على ، ومنعته من زيارتهما أو الاتصال بهما[1] بل استمرت المناظر العاصفة تحدث بين الزوجين لأقل كلمة أو بادرة ، حتى غدا القصر وغدت الحياة المشتركة ، فى نظر الملك المعز جحيما لا يطاق .

وهكذا لبثت الوحشة بين المعز وشجرة الدر فى ازدياد . ولما سئم المعز هذه الحياة الزوجية النكدة فكر فى أن يضع لها حدًّا ، واعتزم أن يختار له زوجة أخرى ، وبعث بالفعل إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يخطب ابنته وكانت رائعة الحسن . ولعله لم يكن فى الوقت نفسه بعيداً عن التفكير فى التخلص من شجرة الدر والتحرر من نيرها المرهق بإزالة شخصها من الوجود . وتحدثنا الرواية فى هذا الصدد بأنه كان للملك المعز منجِّم أخبره أنه سيموت قتيلا على يد امرأة ، فلم يشك فى أنها هى شجرة الدر ، وفكر فى أن يكون البادئ بالفعل . ولكن شجرة الدر كانت ساهرة ترقب حركاته ومشاريعه . وحدث حادث

---

(١) السلوك فى دول الملوك ج ١ (٢) ص ٤٠١ .

ترتب عليه افتضاح المعز . ذلك أنه قبض ذات يوم على عدة من المماليك البحرية وسيرهم إلى القلعة لاعتقالهم فى « الجب » وعلى رأسهم أيدكين الصالحى أحد غلمان الملك الصالح ، فلما وصلوا تحت الشباك الذى تجلس فيه شجرة الدر ، وكانت تجلس فيه عندئذ ، انحنى أيدكين احتراماً ، وصاح بالتركية « والله ياخوند ماعملنا ذنباً يوجب مسكنا ، ولكنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل ماهان علينا لأجلك ؛ فإنا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم . فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ماترين » . فأومأت إليه شجرة الدر بمنديلها بما معناه : « قد سمعت كلامك » . ولما زج أيدكين وزملاؤه إلى الجب قال لهم : « إن كان حبسنا فقد قتلناه » .

وثارت شجرة الدر سخطاً وكبرياء ، وأدركت بثاقب فكرها وخبرتها بدسائس القصر أنها إذا لم تبادر إلى التخلص من زوجها الملك المعز فإنه سيعاجلها بالتخلص منها .

وأرسلت شجرة الدر سرًّا إلى الملك الناصر صاحب دمشق بهدية ورسالة تنبئه فيها أنها اعتزمت التخلص من الملك المعز ، وتعده بالزواج منه وتمليكه عرش مصر ؛ فلم يلتفت الناصر إلى عروضها لما يعلمه من روعة دسائسها وخطر الاتصال بها .

ووقف بدر الدين ملك الموصل على هذا السر الرهيب ، فأرسل إلى الملك المعز يحذره من مشاريع زوجه وغدرها ، ولم يكن المعز بحاجة إلى التحذير ؛ فقد كان يشعر فى الواقع بالخطر الذى يتربص به ، وكان يتحوط لنفسه من شجرة الدر وغلمانها أينما ذهب . وأخيراً اعتزم أن يخرجها من القلعة مبالغة فى الاطمئنان ، وأن يسكنها فى دار الوزارة ، ثم غادر القلعة وأقام أياماً فى مناظر اللوق بعيداً عنها يدبر أمره ويعد العدة لتنفيذ مشروعه الأخير .

وشعرت شجرة الدر من جانبها بأن الفرصة تكاد تفلت من يدها ، وأنها إذا لم تبادر فوراً إلى العمل انهار مشروعها كله ؛ فلم تضع وقتاً ، ولجأت إلى دهاء المرأة وخديعتها ، وبعثت إلى الملك المعز فى مقامه باللوق تتلطف به ، وتستحلفه الصفح والصلح ، وتدعوه إلى قصر القلعة ، وتؤكد له كل عهد بالولاء والاخلاص . فما الذى جال بخاطره عندئذ ؟ وهل كانت ما تزال تجذبه نحو تلك المرأة الساحرة بقية من صبابة الماضى ؟ وهل نسى عندئذ ماكان

يخالجه من ريب فى نياتها الخطرة ؟ وهل آمن عندئذ بأنها سوف تعود حقًا إلى صوابها وولائها وتتخلى عن مشاريعها السوداء ؟ وعلى أى حال فإن الملك المعز لم يرَ بعد التفكير بأساً من أن يستجيب لدعوة زوجه المغرية ، وكان ذلك يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ [1] وقد أنفق المعز عصر ذلك اليوم فى لعب الكرة مع بعض خاصته ، وما غربت الشمس حتى غادر المعز فى ركبه ميدان اللوق إلى القلعة ودخل القصر مجهداً متعباً .

فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة بالغة ، وغمرته بالابتسام والمداعبات ، فاستسلم المعز إلى حساوتها الغادرة ، ولم يتخذ لنفسه أى تحوط . وكانت شجرة الدر قد قررت أمرها واختارت نفس الوقت والساعة لتنفيذ جريمتها ؛ وكانت قد رتبت لاغتيال المعز خمسة من غلمانها هم نصر العزيزى ومحسن الجوهرى ومملوك يدعى سنجر وخادمان من ذوى البأس والشدة . فاستراح المعز قليلا ، ثم قصد إلى الحمام ليلا ليغتسل وهو آمن مطمئن ، ولكن ما كاد يخلع ثيابه حتى انقض عليه الغلمان الخمسة وهو عار لينفذوا فيه حكم الإعدام الذى أصدرته شجرة الدر . وتنقل إلينا الرواية عن مصرعه روايات مثيرة ، فيقال إن القتلة أخذوا بأنثييه وخنقوه فى نفس الوقت حتى زهق ، وفى رواية أخرى أن شجرة الدر أخذت تضربه بالقبقاب على رأسه وهو يستغيث حتى أجهزت عليه . وتضيف الرواية إلى ذلك أن المعز حينما انقض عليه القتلة وشعر بأنه هالك أخذ يستغيث بشجرة الدر ويتضرع إليها أن تنقذه ، وأن شجرة الدر تأثرت بتضرعه وطلبت إلى الغلمان أن يتركوه ، فصاح بها محسن الجوهرى مغضبا : « إذا تركناه فانه لا يبقى علينا ولا عليك » . وهكذا تمت الجريمة وقتل الملك المعز أروع قتلة بتدبير زوجته الغادرة الخؤون بعد أن جلس على عرش مصر سبع سنين وكان قد أشرف على الستين من عمره (١٠ ابريل سنة ١٢٥٧ م) .

وبادرت شجرة الدر فى الحال إلى العمل لاتقاء عواقب الجريمة ، فأرسلت

---

(١) يقول لنا المقريزى إن ذلك اليوم وهو اليوم الذى قتل فى مسائه الملك المعز كان يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ (السلوك ج ١ (٢) ص ٤٠٣) ويقول لنا أبو الفدا (ج ٣ ص ١٩٢) وكذلك صاحب النجوم الزاهرة (ج ٦ ص ٣٧٥) إن ذلك كان يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول . وقد رأينا بعد مقارنة التواريخ والحوادث أن نأخذ بالرواية الثانية باعتبارها أقوى وأرجح .

ليلا إلى القاضى ابن مرزوق واستشارته فى الأمر بعد أن نبأته بموت الملك المعز ، فاعتذر ولم يبد رأياً . وأرسلت فى نفس الوقت تعرض السلطنة على بعض الأمراء الصالحية مثل الأمير عز الدين أيبك الحلبى ، وجمال الدين العزيزى ، فلم يرضها أحد منهم رهبة وروعاً . وهكذا أخفقت شجرة الدر فى محاولتها أن تقيم على وجه السرعة فى السلطنة أميراً تستتر وراءه فى الحكم . وأذيع فى صباح اليوم التالى أن الملك المعز مات بالليل فجأة ، فحدث أيما هرج واضطراب ، ولم يصدّق معظم الناس هذا النبأ ، وذاعت مختلف الإشاعات وكثرت الظنون والريب . وركب المماليك إلى القلعة وعلى رأسهم الأمير بهاء الدين الأشرفى مقدم الحلقة وحاصروا القصر ، وقبضوا على الخدم والحريم ، فأقر بعضهم بحقيقة ما وقع . وفى الحال استدعى كبير الوزراء شرف الدين الفائزى [1] ونادى الأمراء المعزية بتولية الملك المنصور علىّ ولد الملك المعز على العرش مكان أبيه ، وكان يومئذ صبيا فى نحو الخامسة عشرة ، ووافق الأمراء الصالحية على توليته اتقاء الفتنة ، وأخفقت جهود الأمراء المتوثبين لاغتصاب العرش

وأراد الأمراء المعزية القبض على شجرة الدر ، وكانت قد امتنعت بجناحها فى القلعة مع نفر من خدمها وجواريها ، وحاولوا اقتحام الدار فمنعهم الأمراء الصالحية ، وكادت تقع بين الفريقين فتنة لولا أن تعهد الأمراء المعزية آخر الأمر بتأمين شجرة الدر وعدم التعرض لشخصها . وفى اليوم التاسع والعشرين من ربيع الأول أخرجت شجرة الدر باتفاق الفريقين من جناحها الملكى واعتقلت مع بعض جواريها فى البرج الأحمر أمنع أبراج القلعة يومئذ ، وكان يقع فى الناحية الجنوبية منها ، وقبض على الخدم الذين اشتركوا فى الجريمة ، وفى مقدمتهم محسن وسنجر وصلبوا على باب القلعة ، ولم ينج منهم سوى نصر العزيزى الذى استطاع الفرار إلى الشام ، وقُتِل عدة كبيرة من الغلمان والطواشية ، وقبض على الوزير الصاحب بهاء الدين حِنّا وزير شجرة الدر السابق بتهمة الاشتراك فى الجريمة ، ولم يفرج عنه إلا بعد أن افتدى نفسه بمبلغ طائل . وأما شرف الدين الفائزى فقد قبض عليه بعد أن تولى الوزارة للملك

---

(١) هو الوزير شرف الدين أبو سعيد هبة الله بن صاعد الفائزى ، وكان قبطياً فاسلم وتقدم فى وظائف الدولة حتى ولى رئاسة الوزراء للملك المعز ، وولى الوزارة من بعده لولده المنصور أياماً قلائل ، ثم قبض عليه وتوفى قتيلا فى جمادى الأولى سنة ٦٥٥ هـ .

الجديد أياماً ، ثم قتل فى سجنه بعد ذلك بقليل . وأحاطت المماليك المعزية بالقصر السلطانى ، ووضعوا أيديهم على جميع مافيه ، واقتسموا جوارى شجرة الدر ومتاعها ، وسادت فى القصر والبلاط أسباب الذعر والإرجاف مدى حين .

١٠

ولبثت شجرة الدر فى معتقلها بالبرج الأحمر أياماً وهى تعانى أمر ضروب التوجس والروع . وقد كانت بلا ريب تشعر بمصيرها المحتوم . وأى مصير كان ينتظرها سوى الموت فى أعنف صورة ؟ ولم يك ثمة سبيل للفرار وأعين المماليك المعزية ترقبها بمنتهى الحذر . وكان المماليك المعزية يخشون هذه المرأة الخطرة بالرغم من محنتها واعتقالها ، ويعتقدون أنه لا ضمان لاستقرارهم فى العرش والسلطة سوى إزالتها من الوجود . وكان الملك الفتى المنصور وأمه يضطرمان ظمأ للانتقام من الزوج القاتلة . وهكذا كان القدر الصارم يتربص بشجرة الدر ويدنو منها سراعاً ، وكان الأمراء المعزية يترقبون الفرصة للعمل ويطالبون جهاراً بتسليم شجرة الدر ومعاقبتها على ما أثمت ، والمماليك الصالحية من جانبهم يحاولون إنقاذ شجرة الدر وحمايتها ، بيد أنهم كانوا الفريق الأضعف ، فلم تمض أيام قلائل حتى وهنت معارضتهم وانحنوا امام العاصفة . وفى يوم الجمعة العاشر من شهر ربيع الثانى [1] نفذ المماليك المعزية إلى البرج الأحمر بأمر الملك المنصور وأمه ، وقبضوا على شجرة الدر وحملوها إلى أم الملك المنصور لكى تتولى عقابها بنفسها . وهنا يقول لنا المقريزى : « فضربها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت فى يوم السبت وألقوها من سور القلعة إلى الخندق

---

(١) تختلف الرواية الاسلامية فى تاريخ مقتل شجرة الدر كما اختلفت فى تاريخ مقتل زوجها الملك المعز . فيقول لنا المقريزى إنها قتلت يوم السبت ١٨ ربيع الأول أعنى بعد مقتل المعز بثلاثة أيام وفقاً لرواية (السلوك ج ١ — ٢ — ص ٤٠٤) . ويقول صاحب النجوم الزاهرة نقلا عن أكثر من رواية إن مقتل شجرة الدر كان يوم السبت ١١ ربيع الثانى . وذلك لسبعة عشر يوماً من مقتل الملك المعز (ج ٦ ص ٣٧٧ و ٣٧٨) . ويقول أبو الفدا إنها قتلت فى يوم ١٦ ربيع الثانى . ويقول ابن إياس إنها قتلت فى يوم ٢٥ ربيع الثانى (ج ١ ص ٩٢) . وقد أخذنا نحن برواية صاحب النجوم الزاهرة باعتبارها أقوى وأرجح .

وليس عليها سوى سراويل وقميص ، فبقيت فى الخندق أياماً ، وأخذ بعض أراذل العامة تكة سراويلها. ثم دفنت بعد — أيام وقد أنتنت وحملت فى قفة — بتربتها قرب المشهد النفيسى . [1]» وتزيد الرواية على ذلك أن شجرة الدر حينما أيقنت بهلاكها كان من قوة نفسها أن أخفت جملة من المال والجواهر ، وانتقت فوق ذلك طائفة من الجواهر والحلى النفيسة وحطمتها وسحقتها فى الهاون حتى لا تقع فى أيدى أعدائها [2] .

وهكذا زهقت شجرة الدر أول وآخر ملكة لمصر الإسلامية ، تلك التى لبثت مدى أعوام طويلة زينة البلاط المصرى ، وصاحبة الحول والسلطان فيه ، وزهقت بنفس الأسلوب المروِّع الذى زهق به زوجها الملك المعز ، وكان القصاص مثيراً ولكن عادلا ، وكان الفصل الأخير من مأساة قصر متعددة الفصول والنواحى ، بدأت رائعة باهرة ثم انحدرت إلى ظلمات الجريمة .

وكانت شجرة الدر ، بإجماع الروايات المعاصرة والمتأخرة ، شخصية عظيمة تمتاز بخلال ومواهب غير عادية . وكانت إلى جانب جمالها الرائع وسحرها الوافر كامرأة وحظية ، تتمتع بصفات باهرة قلما تجتمع فى حسناء وافرة السحر ؛ فقد كانت قوية النفس صارمة العزم وافرة الحرمة والحشمة ، تعيش فى جو من

---

(١) دفنت شجرة الدر فى التربة التى أنشأتها لنفسها بقرب مشهد السيدة نفيسة فى سنة ٦٤٨ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤) وما تزال هذه التربة قائمة حتى اليوم ، وهى توجد داخل مسجد صغير أصله مدرسة أنشأتها شجرة الدر بجوار تربتها بشارع الخليفة ، وتعرف اليوم باسم جامع شجرة الدر أو جامع الخليفة . وعلى التربة قبة من طراز عباسى كتب فى جنباتها ما يأتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . عز الستر الرفيع والحجاب المنيع ، عصمة الدنيا والدين ، والدة الملك خليل بن مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أبى المظفر أيوب بن مولانا الملك الكامل ناصر الدين أبى المعالى محمد بن أبى بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين قدس الله روحه ونور ضريحه ، التى خطبت الأقلام مناقبها على منابر الطروس ، وشهدت لها المفاخر بالمجد الثابت فى أعلى العز بين الورى ، وأصبحت شموس المملكة بها طالعة ، وآراء الأمراء لأمرها مطيعة وسامعة ، وأعز الله أنصارها ، وضاعف اقتدارها ، وأعلى منارها ، وجعل النيرين فى الملأ الأعلى خدامها ، ولم تزل مؤيدة منصورة على مر الليالى والأيام بمحمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام » . (ورد هذا النص ضمن بحث عن العمارة الاسلامية فى العصر الأيوبى للاستاذ حسن عبد الوهاب ونشر بمجلة العمارة عددى ٧ — ٨ لسنة ١٩٤٠) .

(٢) السلوك ج ٢ ص ٤٠٤ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٨ .

المهابة والجلال ، ولم تكن فقط جارية القصر الأثيرة تسيطر بأنوثتها ودلالها ولكنها كانت تسيطر أينما حلت بقوة عقلها وذكائها وروحها . وقد لبثت منذ تولى سيدها وزوجها الملك الصالح ملك مصر زهاء ثمانية عشرة عاماً أبرز شخصية فى البلاط وفى الدولة ، يغلب رأيها كل رأى ونفوذها كل نفوذ . ولم يكن تبوؤها العرش لفترة قصيرة المدى إلا عنوان الذروة فى هذا المجد العريق الذى شادته حولها خلال أعوام طويلة من السلطان غير المتوج . وقد كان لصائب رأيها وثابت جنانها وتوجيهها الجرىء أثناء غزو الصليبيين لمصر أعظم الأثر فى إنقاذ مصر من كارثة مروعة ، وتحويلها إلى نصر حاسم باهر . ولم تفقد شجرة الدر شيئاً من سلطانها القاهر حينما خلعت نفسها وتخلت عن عرشها للملك المعز ، ولكنها لبثت من ورائه سيدة الموقف وصاحبة الرأى ، وكانت حتى فى تلك الآونة التى بدأت تغالبها فيها الظروف ، وأخذ يخبو نجمها المتألق ، أقدر من يسوس طوائف المماليك المتمردة ويهدىء ثورتها .

وكانت هذه المرأة العظيمة التى رفعها القدر إلى عرش مصر تتمتع فوق ذلك كله بخلال شخصية جليلة . فقد كانت بالرغم من جمالها وسحرها ، سيدة متينة الخلق ، وافرة العفاف والصون ، تقية خيرة ، تعشق أعمال البر وتقف عليها الكثير من مالها . وكانت الغيرة العنيفة هى أظهر ما فيها من ضعف المرأة ، وهى التى أضلتها ودفعتها فى النهاية إلى الخاتمة المؤسية .

وجلس بعد الملك المعز على عرش مصر حدث يافع ، هو ولده الملك المنصور علي ، ولم يكن أصلح من يتولى الملك ، ولكنه كان مرشح المماليك البحرية ودرعهم لإقصاء بنى أيوب عن العرش . ومع ذلك فلم تهدأ الخواطر ولم تستقر الأمور بولايته ، ولبثت الدسائس والمنافسات بين مختلف الزعماء على اضطرامها وكانت مصر أثناء هذا المعترك الدموى حول عرشها تواجه فترة من أدق فترات تاريخها . وكانت غزوات التتار البربرية تنساب نحو الشرق بسرعة ، وصروح العالم الإسلامى القديم تنهار تحت ضرباتهم تباعاً . وبلغ الخطر المروع ذورته حينما انقض التتار بقيادة عاهلهم هلاكو على بغداد واستولوا عليها ، وقضوا على الخلافة العباسية وقتلوا المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين بها ، وذلك فى صفر سنة ٦٥٦ هـ (فبراير سنة ١٢٥٨ م) وأخذ الشرق الإسلامى كله يرتجف فرقاً

لاقتراب الخطر الداهم ، وكانت مصر أشد شعوراً من غيرها بالخطر ؛ لأنها كانت دائماً كعبة الغزاة من المشرق . وسرعان ما كشف هلاكو عن نياته نحو الشام ومصر ، فأرسل رسله إلى أمراء الشام يدعوهم إلى الخضوع والتسليم العاجل ، وأخذت جيوش التتار تعبر الفرات متجهة نحو الشرق ، ولم يك ثمة شك فى النتيجة المروعة إذا سمح لهذا السيل المخرب أن ينساب إلى ربوع مصر الخضراء .

فى تلك الآونة العصيبة ظهر الأمير سيف الدين قطز أقوى الزعماء البحرية فى ميدان الحوادث ، وكان يتولى نيابة السلطنة ويقوم للملك المنصور بتدبير شئون المملكة ، وكان يرقب سير الحوادث فى المشرق بجزع ، ويرى وجود هذا الفتى اليافع على عرش مصر فى هذا الظرف الدقيق خطراً يهدد كيانها ، فانتهز أول فرصة وقبض على الملك المنصور وأمه وأخيه وزجهم إلى برج القلعة ، ونادى بنفسه ملكا (٢٤ ذى القعدة سنة ٦٥٧) ، وأعلن إلى زملائه الأمراء فى صراحة أنه لا يبغى الملك لذاته ، ولكنه يريد التأهب لرد التتار وإنقاذ مصر من شرهم ؛ فإذا تم القضاء على هذا الخطر فلهم أن يختاروا غيره للملك من شاءوا .

ووصل التتار إلى الشام فى أوائل سنة ٦٥٨ هـ واستولوا على حلب وأعلنت دمشق خضوعها لهم . ولم تمض أشهر قلائل حتى سيطروا على سائر جنبات الشام ، ثم انسابوا نحو الجنوب بسرعة مدهشة ، ووصلوا إلى فلسطين ، وأرسل هلاكو رسله إلى ملك مصر يطلب إليه الخضوع والتسليم ويهدده بالويل . وكانت مصر تستعد من أقصاها إلى أقصاها للقاء الغزاة ، وبذل الملك قطز جهوداً عظيمة فى حشد الجند وإتمام الأهبة . فلما وصل رسل هلاكو أجاب قطز بالقبض عليهم وإعدامهم وتعليق رءوسهم على باب زويلة ، ثم سار من فوره على رأس قواته إلى فلسطين ، وبادر بلقاء الغزاة فى عزم وثقة . وكان التتار قد وصلوا عندئذ إلى أسوار غزة فردهم جند مصر بقوة ، واشتبكوا معهم فى معركة عظيمة حاسمة فى عين جالوت على مقربة من بيسان ، وذلك فى منتصف رمضان سنة ٦٥٨ هـ (سبتمبر سنة ١٢٦٠ م) . وفى عين جالوت أحرزت مصر نصراً باهراً ، واستطاعت أن ترد الغزاة البرابرة على أعقابهم ، وكان يوماً عظيماً لمصر والإسلام . ولم يمض قليل حتى استطاع الملك المظفر

فطز أن يستخلص الشام من التتار ، وأن يردهم نحو المشرق منهزمين مدحورين . وكان لمصر فضل القضاء على خطر التتار ، كما كان لها من قبل فضل القضاء على سيل الغزوات الصليبية ، وكانت فى عين جالوت تقوم برسالتها التاريخية فى حماية الإسلام والمدنية الإسلامية .

محمد عبد الله عنان